لماذا هاجر اليهود من المغرب..؟ 2/2

لماذا هاجر معظم اليهود المغاربة من المغرب ما بين سنتي 1950 و 1970 مع العلم أنهم عاشوا به كموطن أصلي أزيد من 2000 سنة؟ عام 1950 كان هناك حوالي 250000 إلى 300000 يهودي بالبلاد و في سنة 1971 صاروا حوالي 35000 أما الآن فعددهم لا يتجاوز 5000، ما هي هذه القوى أو الظروف التي دفعت قوما لمغادرة أراضيهم والتخلي عن تراثهم الثقافي وذلك في ظرف زمني وجيز؟

إعداد كريم لقمش

2) السيطرة الفرنسية على منظمات يهودية غير مغربية

العمل الثاني الذي ساهم في الهجرة الجماعية لليهود من المغرب كان هو تمكن الفرنسيين من السيطرة على مصالح المنظمات اليهودية غير المغربية في حماية اليهود المغاربة.

كانت مفروضة على اليهود في المرحلة ما قبل الاستعمارية، قد تم رفعها من قبل المستعمرين، فإن الفرنسيين ظلوا يحظون بمعاملات تفضيلية في التجارة، وفي ظل الأزمة الاقتصادية المتفاقمة، فقد ارتفعت وتيرة الهجرة من القرى في صفوف اليهود إلى أحياء «الملاح» بمختلف المدن المغربية.

3) العلمانية والتماهي مع فرنسا

لقد تمّ استخدام اليهود من أجل السيطرة

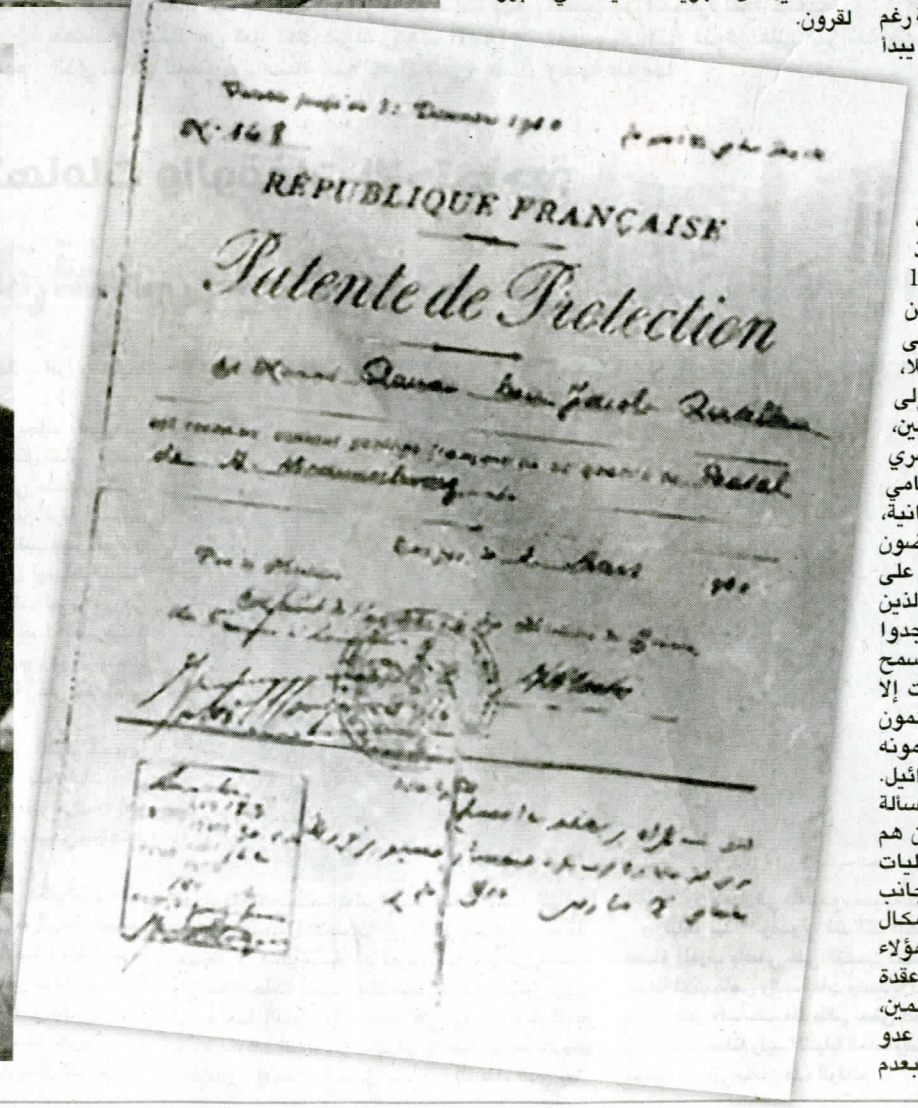

سنة 1912 أرغم السلطان على توقيع معاهدات متفرقة مع الفرنسيين والإسبان تضع المغرب تحت حمايتهم. وبسطت فرنسا حمايتها على معظم التراب الوطني فيما سيطر الإسبان على المنطقة الشمالية والمناطق المحيطة بالجبال، وجُعلت طنجة مدينة دولية. لم يتم إرغام السلطان على التخلي عن الحكم، ولكنه كان مجبرا على وضع الأختام السلطانية على السياسات العامة أو القوانين التي تصدرها السلطات الاستعمارية. وقامت إسبانيا بلعب نفس الدور الذي لعبته فرنسا في التفريق بين المسلمين واليهود الذين يقعون تحت حمايتهم. معاهدة فاس وقعت في الـ 30 من مارس معلنة عن دخول المغرب عهد الحماية الفرنسية. وفي الـ17 من أبريل ثارت كتائب السلطان في فاس، غير أنهم فشلوا في اقتحام المربع الأوربي الذي كانت القوات الفرنسية توفر له الحماية. وللتعويض عن خيبة الأمل، قام الجنود بمعية حشود من المواطنين بمهاجمة «الملاح» الذي كانت السلطات الاستعمارية قد صادرت منه جميع الأسلحة. ولحماية السكان اليهود قام الجنود الفرنسيون بإطلاق النار والقنابل مما دمر العديد من المنازل وأشعل في بعضها النيران. وكنتيجة لذلك، غادر اليهود الملاح قبل أن يتم نهبه في اليوم الموالي من طرف القرويين. خلال 3 أيام من العنف لقي 51 يهوديا مصرعهم فيما جرح 72 آخرون. نفس العدد من الضحايا سقط في صفوف القوات الفرنسية فيما بلغ عدد القتلى والجرحى من المسلمين 1000 شخص. ثلث الملاح دمر تماما و 12 ألف يهودي وجدوا أنفسهم من دون مأوى. واستجابة للصرخة التي أطلقتها منظمات يهودية بالخارج، قامت فرنسا بالسيطرة على إدارة المجموعات اليهودية وأصبح المقيم العام ومعاونوه هم من يقوم بهذه المهمة عوض السلطان وحاشيته. ورغم ذلك فقد أبقى الفرنسيون اليهود تابعين للسلطان على عكس ما وقع في الجزائر، حيث منحت الجنسية الفرنسية لليهود. وقد كان لهذا الأمر الدور الكبير في جعل اليهود المغاربة ميالين إلى إغراءات الصهيونية، خصوصا بعد الحرب العالمية الثانية.

لقد تمّ استخدام اليهود من أجل السيطرة على المسلمين، وكجزء من هذا المخطط، تم اتخاذ إجراءات عديدة للتفريق بينهما. بعد حادثة فاس وحوادث أخرى متفرقة بدأ اليهود المغاربة يفقدون الثقة في المسلمين ولعب الفرنسيون على هذه المشاعر من خلال محاولتهم إقناع اليهود بأن فرنسا جاءت لحمايتهم. قالوا لهم إنهم سيجلبون لهم الحضارة والعدل والخلاص. وبدعمهم للتحالف العالمي الإسرائيلي شجعوا اليهود على تعلم الفرنسية واتخاذ أسماء فرنكوفونية مع الابتعاد رويدا رويدا عن الثقافة المغربية واللغة العربية. وبالفعل ظهرت طبقة من النخبة اليهودية المفرنسة رغم عدم حصولها على المساواة أبدا مع الفرنسيين. بل إن العديد من الاستعماريين لم يخفوا مشاعرهم المعادية للسامية، ويبقى أن معظم اليهود لم يكونوا على اتصال متواصل مع الفرنسيين. ومن بين الأسباب الأخرى التي دفعت فرنسا إلى محاولة التفرقة بين المسلمين واليهود هو منعهم من تشكيل جبهة موحدة ضد الوجود الفرنسي بالمغرب. وهي نفس الاستراتيجية التي استعملت لزرع الخلاف بين الأمازيغ والعرب. كان يفترض في اليهود أن يلعبوا دورا أقل من الفرنسيين ولكن أكثر من العرب والأمازيغ. ورغم أن العديد من القيود التي

على المسلمين، وكجزء من هذا المخطط، تم اتخاذ إجراءات عديدة للتفريق بينهما

العامل الثالث المساهم في هجرة اليهود هو إعتناقهم للمبادئ العلمانية وتماهيهم مع الفرنسيين، مما أدى إلى التفرقة بين اليهود والمسلمين.

كانت فرنسا هي العامل الرئيس في علمنة اليهود المغاربة من خلال التحالف الإسرائيلي العالمي، وهي منظمة يهودية فرنسية غير حكومية كانت تمول الدراسات العلمانية لليهود المغاربة على طول التراب الوطني والإمبراطورية العثمانية السابقة، وكان ذلك وسيلة للترويج للثقافة الفرنسية دون أن يكون دعوة للتأثر بها. كانت مقررات المدارس مثقلة بالثقافة الفرنسية إلى جانب المواد الأخرى كالرياضيات والعلوم، مع قليل من التركيز على الدراسات الدينية اليهودية. و كانوا يحرصون على اختيار التلاميذ من أولئك الذين تتلمذوا على يد الحاخامات في المدارس الدينية، مما جعل الحاخامات معارضين لأنشطة التحالف الإسرائيلي العالمي منذ البداية. وكانت أول مدرسة تابعة للتحالف قد أنشئت بتطوان سنة 1862 مباشرة بعد رحيل الإسبان. وقد كانت هناك 27 مدرسة تابعة للتحالف موزعة على 15 مدينة وتقدم الخدمات الدراسية لأزيد من 5000 طالب مع بداية الحماية الفرنسية عام 1912 لتقرر السلطات الاستعمارية سنة 1915 تقديم الدعم المادي والمعنوي لها. حاول التحالف تعليم اليهود المبادئ الجديدة لليهودي المعاصر الذي يقبل بالآخر ويرفض التماهي مع الهوية اليهودية الشوفينية وشخصية «اليهودي التاريخي». وظلت مدارس التحالف الإسرائيلي العالمي تشتغل في كل من المنطقتين الفرنسية والإسبانية رغم وقوع فرنسا أمام النازية سنة 1940 ولم يبدأ «التحالف» في الانحياز إلى الأطروحات الصهيونية بشكل رسمي ولكنه بدأ في تدريس اللغة العبرية العصرية، كما أن خريجي المدرسة صاروا من أشد المؤيدين للحركة الصهيونية. بعد الحرب، مولت فرنسا 60 بالمائة من ميزانية التحالف الإسرائيلي العالمي مما جعل عدد التلاميذ التابعين له يرتفع من 22000 سنة 1948 إلى 33000 عام 1956. وبما أن القليل من العائلات المسلمة كانت ترسل أبناءها إلى المدارس الفرنسية، سواء تسييرا أم تمويلا، فإن معظم التلاميذ كانوا من اليهود، 60 إلى 70 بالمائة، ولم يكن بوسع أبناء المسلمين، 14 بالمائة، تلقي أي من التعليم العصري الدنيوي غير المرتبط بالدين. ورغم تنامي الحس الوطني بعد الحرب العالمية الثانية، إلا أن القائمين على «التحالف» كانوا يرفضون تدريس اللغة العربية وكانوا يقتصرون على العبرية والفرنسية رغم أن التلاميذ الذين ينتمون إلى وسط مغربي ما كانوا ليجدوا صعوبات في تعلمها والتكلم بها. ولم يسمح بإدماج العربية الكلاسيكية في المقررات إلا بعد الاستقلال. ويشتكي الوطنيون المسلمون من التحالف الإسرائيلي العالمي ويتهمونه بتسهيل هجرة اليهود المغاربة إلى إسرائيل. ويلخص أحد الصحافيين المغاربة هذه المسألة عندما كتب سنة 1976 قائلا: «عديدون هم أولئك اليهود الذين كانوا ضحايا لعمليات هذه المنظمة وكانوا يشعرون وكأنهم أجانب وليسوا مغاربة. وبفقدهم لكافة أشكال التواصل مع إخوانهم المسلمين أصبح هؤلاء اليهود المهووسون في الغرب تتملكهم عقدة وقوعهم ضحية للاضطهاد من طرف المسلمين، ولم يعودوا يرون في هذا المسلم سوى عدو محتمل. ومن خلال إذكاء الأحاسيس بعدم

الأمان في صفوف اليهود، تمكن التحالف الإسرائيلي من تعبيد الطريق نحو الهجرة الجماعية لليهود المغاربة إلى أرض إسرائيل. لقد تم التخطيط لهذا الرحيل بشكل جيد من طرف الصهاينة منذ القرن 19، وهي الفترة التي عرفت انتشار التأثير الذي يمارسه التحالف اليهودي في كل مناطق المغرب» (عبد القادر بن عبد الله ، لوبينيون، 1976).

نعتقد أن معظم أوجه النقد الواردة في المقال صحيحة. لقد عمل التحالف الإسرائيلي بالفعل على إذكاء الصراع والعداوة بين المسلمين واليهود، وتمكن من خلق نخبة يهودية مفرنسة وعلمانية سهلت الهجرة من المغرب. لو كان التحالف الإسرائيلي العالمي قبل بتدريس اللغة العربية والثقافة المحلية لليهود لربما ارتبطوا أكثر بالمغرب ولربما بقوا فيه ولما تماهوا مع الهوية الفرنسية منسلخين عن الهوية المحلية التي خبروها لقرون.